محمد شكري

مفهومي للسيرة الذاتية الشطارية

لقد كتبت الجزء الأول من سيرتي الذاتية في زمن مبكر لبغض الاسباب:

- لم أكتبها بالمفهوم التقليدي المتسلسل تاريخياً Chronologiquement الذي غالباً ما تكون له علاقة بالنتاج الادبي الذاتي والموضوعي.

- أعتبرها سيرة ذاتية - روائية.

- حافزي الى كتابتها بهذا الشكل هو أنني حاولت، ضمن تجربتي حتى سن العشرين، أن اسجل مرحلة زمنية عن جيل الصعاليك في عهد الاحتلالين الاسباني والفرنسي والدول التي كانت لها هيمنة لا تقل عن الاحتلالين المباشرين، خاصة في مدينة طنجة الدولية.

- انها سيرة ذاتية - روائية - شطارية. Novela-Autobiografica-Picaresea.

ان الحياة التي عشتها، حتى تلك السن في عشيرة البؤساء والشطار، عن لاقصدية شخصية، كنت أستمدها، عن قهر، من كل ما هو لاأخلاقي. وما زال هذا النموذج الهجين من الطفولة المغربية يفرزه مجتمعنا المغربي حتى اليوم.

ان الطفل المغربي، من هذه الطبقة المهمشة، يصبح رجلاً، في سلوكه وملامحه، في السادسة أو السابعة من عمره.

لقد حاكمت نفسي وأسرتي والمجتمع، في هذه السن، بقانون الشيطان الذي أوعاني باكراً معنى الاستغلال والقمع اللذين أيقظا فيّ التمرد والحرية. لقد قال ألبير كامو: «لم اتعلم الحرية من كارل ماركس، ولكنني تعلمتها من البؤس».

تثار أيضاً قضية الصدق والكذب حول كتاب سيرهم الذاتية، وهم قلة في العالم العربي، والذين كتبوها اما بصناعة أدبية متحذلقة وبكثير من الحشمة والتستر او استوحوا فلسفة الحياة وحكمتها من حكايات جداتهم وعماتهم وداداتهم.[1].

صعب علينا أن نخون التاريخ الحقيقي للأحداث الواقعية، لأنه ليس: «التاريخ كابوساً أحاول أن أستيقظ منه» كما يقول جويس على لسان بطله ديدالوس. سهل أن نكذب عندما نكتب عن ذواتنا الحميمة وذوات الاخرين المغمورين.

أنا أعتقد ان كل ما يفكر فيه الانسان، بشرط أن يوحي بالصدق، فهو معيش، لأننا لا نملك بعد الواقع الموازي لافكارنا وتصوراتنا.

الانسان فكرة صادقة عن نفسه قبل أن يكون شيئاً في تصور الغير:

طرفة بن العبد، امرؤ القيس، المتنبي، المعري، بشار، الحلاج، دوستويفسكي، لوتر يامون، ولت ويتمان وامثالهم لعنهم زمانهم لان أفكارهم كانت اكبر من ان يستوعبها واقع مجتمعهم، ولكن هذا لا يعني ان الانسان لا يؤثر في عصره. ان أسماء شهذاء الكلمة، قديماً وحديثاً، يفوق عدد جلاديهم، كما أننا اذا بحثنا في السجلات الذهبية للسادة سنجد أن عدد الخدم يفوق أيضاً عدد الضيوف.

ان الكتابة الملائكية، عن الانسان، قد تسلي ولكنها لا تخدم ولا تغير. اننا لا نملك الحرية والخيار في الكتابة التطويرية لان بعض الانظمة العربية الرجعية مسكونة بمرض ازدواجية التفكير. لقد قال عبد الكبير الخطيبي في كتابه: «رواية المغرب العربي»: «نحن نسمح للدعارة ان تكون في الشارع ولا نسمح لشخصية روائية أن تعهر».

ان ما تريده منا هذه الانظمة هو أن نكتب لها الانشاءات الديماغوجية لأنها ضد الوعي التقدمي الذي يهدد بقاءها. وفي احسن الاحوال تسمح لنا أن نلمح ولا نصرح. لهذا السبب تمتلىء الاسواق الادبية بكثير من الكتابات المليئة بالرموز والالغاز والشعوذة باسم الابداع.

هذه الافرازات هي التي تخدم ايديولوجية السادة العوالق (الفمبيريين) الذين يمتصون دماء المسودين.

ان الادب الشطاري ضد هذه الشبحية المضللة، خاصة السيرة الذاتية الشطارية التي هي وليدة طبقة شبه منفصلة الجذور عن أسرتها واقاربها مما يجعلها أقدر من السيرة الذاتية التقليدية على كشف المباذل، اذا اتيحت لكتابها الامكانيات الضرورية.

لقد كتبتها بضمير المتكلم وليس بضمير الغائب كما يفعل بعض الادباء. ان لعبة الضمائر هذه هي ايضاً نوع من المراوغة والاستغباء والتواضع الذي قد يحمل معنى الكبرياء، لأن «الانا» ليس دائماً تأكيداً للذات واكتراثاً بها كما ان الغائب المستعار ينبغي الا يغرينا بالنية الطيبة عن تجرد الذاتية من النرجسية.

ان ما كتبته في هذه السيرة أعتبره وثيقة اجتماعية، وليس أدباً، عن مرحلة معينة آثارها السيئة ما زالت تنخر مجتمعنا.

---

(١) هي الخادم التي ازمنت في خدمة أسرة. وهي بمثابة الجدة بالنسبة للاولاد.